المتنبي وجنون العظمة

المتنبي شاعر هائج مائج، هدار موار، كالبركان يرمي بالحمم، مارد كالريح القاصف العاصف، فهو لا يؤمن بالمهادنة والتروي والانتظار، فهو إما متوجع متفجع، وإما شاكٍ باك، وإما غاضب ناقم، وإما مظلوم مهضوم، وإما ساطع لامع، غير أنه ليس ساكنًا كامنًا، بل هو في الحقيقة مالئ الدنيا، وشاغل الناس، وبسبب هذه المعاندة والإباء والمشاكسة طار ذكره، وشع بيانه، وساح في الناس أدبه.

إن الذين يريدون التأثير في الأجيال، ثم لا ينفضون من حولهم بنتاجهم وعلمهم وأدبهم وخطبهم، إنما هم أموات غير أحياء، وما يشعرون أيان يُبعثون.

إن أهل الدعة والخمول نسخ مكررة، يراها الناس ملء الشوارع والأسواق، ولكن العباقرة أندر من الكبريت الأحمر، فهم يشاركون الناس في الصورة الظاهرة، ويفوقونهم في المواهب والصفات، كما قال المتنبي نفسه:

وإِنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهُم فإنَّ المسْكَ بعضُ دمِ الغَزالِ

ولكن المتنبي طغى به بيانه، وحدثته نفسه بأنه فريد العالم، ووحيد الدهر، ورجل الدنيا، فترجم ذلك شعرًا، يقول:

أيَّ مَحلٍ أرتَقِي أيَّ عظَيمٍ أتَّقِي

وكُلَّ ما قَدْ خَلَقَ اللـ ـهُ وما لَمْ يَخْلُقِ

مُحْتقرٌ فِي هِمَّتي كَشَعرةٍ فِي مَفرقِي

نستغفر الله ونتوب إليه من هذا الغلو الفاحش، والطغيان الجارف، وكما سلف معنا فقد نظر العُمْي إلى أدبه، وسمع الصُّم كلماتِه:

أنا الذي نظرَ الأعمَى إلى أدبِي وأسمعتْ كلماتِي من به صَمَمُ

وها هو يصف نفسه بأعجوبة الزمان ونادرة الكون:

إليّ لعمري قصدُ كلِ عجيبةٍ كأني عجيبٌ في عيونِ العَجائبِ

بأيِّ بلادٍ لم أجُرَّ ذُؤابتي وأيُّ مكانٍ لم تطأهُ ركائبي

وهو عند نفسه وحيد في بابه، لم ينسج على منواله أحد، ولن يتكرر وجوده في الناس، وشعره حديث البشر وقضية القضايا:

أنامٌ ملءَ جفونِي عن شوارِدِها ويسهرُ الخلقُ جَرَّاها ويختصمُ

فالناس مشغولون بشعره، منهمكون في عظمته، مستغرقون في دراسة أدبه، هكذا يتصور ويفكر ويقدر، بل ينصحك ألا تسمع إلا له، ولا تنظر في شعر سواه، فإن غيره إذا تكلم فسدَ الكلام، ومجَّ الحديث، ورخص القول:

ولا تبالِ بشعرٍ بعد شاعرِه قد أُفسِدَ القولُ حتى أُحمِد الصَّمُمُ

ويرى أن الشعراء قد عجزوا عن مجاراته، وأفلسوا في السباق معه، ويقول:

إذا شاءَ أن يلهو بلِحية أحْمقٍ أراهُ غُبَاري ثمَّ قالَ له الحْقِ

أي أن سيف الدولة إذا أراد أن يضحك من شاعر أو يسخر منه، أراه غبار المتنبي السابق المتفرد، ثم قال لهذا الأحمق: أدرك ذاك الجواد المضمر وهيهات، ثم يقول:

وما كَمدُ الحسَّادِ شيءٌ قَصَدتُهُ ولكنَّهُ من يزحَمِ البحرَ يغرقِ

فقد غرق الحساد في بحر عظمته، وهو لم يرد ذلك أصلًا، ولكنهم هم الذين تعرضوا له.

وله في مدح نفسه كلمات سائرة، مرة يثني على نفسه الجليلة عنده، العزيزة لديه، ومرة يبارك شعره ويتبجح به، وأخرى يصب جام غضبه على أعدائه، ويتعجب من جهلهم به وبمقداره، وعدم اعترافهم بنبوغه وتفوقه. واسمع له يترنح في غمرة عجبه، ويسكر بكأس تبجحه، ويسبح في خيال وهمه الذي أوحى إليه من زخرف القول غروراً جامحًا، وتيهًا جارفًا، يقول:

أطاعنُ خيلاً من فوارسِها الدهرُ وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبرُ

وأشجعُ منِّي كل يوم سلامتي وما ثَبَتتْ إلا وفي نفسها أمرُ

تمرستُ بالآفاتِ حتى تركتُها تقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذعرُ

وأقدمتُ إقدام الأتيِّ كأنَّ لي سوى مُهَجتي أو كان لي عندها وِترُ

وكلما أردنا أن نغضب منه لهذا الجموح الطاغي، والتعالي المرفوض، أرضانا بهذا القول الخلاب، والسحر الجذاب، والمنطق السالب للعقول، فسكتنا عاتبين.

إن العباقرة يجدون تحديًا سافرًا من الأغبياء، وظلمًا ظاهرًا من البلداء فتثور ثائرتهم، وتغلي مراجلهم، وتضطرب جوانحهم، ومنهم هذا الشاعر الذي فتح جبهات مع خصومه، ودخل معارك ضارية مع حساده، وأصبحت حربه معهم حرب بقاء أو إبادة، حياة أو موتٍ، وجودٍ أم عدمٍ. ليس عند المتنبي تواضع الصالحين،

ولا إخبات الأولياء، ولا ورع العلماء؛ لأنه طالب شهرة، قانص مجد، باحث عن إمارة، ساع يلهث وراء الجاه والصدارة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]:

ألا بلَّغ اللهُ الحِمَى من يُرِيدُه ... وبَلَّغَ أطرافَ الحِمى من يُريدُها

obeikandl.com